اللغة العامّية واللغة الفصحى

نشر بعضهم من سنواتٍ رسائل متتابعة يدعو فيها علمآء العربية وكتّابها الى استبدال اللغة العاميّة من الفُصحَى واعتمادها في الكتب والجرائد وغيرها ورسم لها حروفاً جديدة تُكتَب بها هي الحروف اللاتينية وقد وضع لبعضها علاماتٍ خاصّة للدلالة على المقاطع التي لا صُوَر لها في اللغات الافرنجية . وقد انتهى الينا بعض ما نشرهُ من تلك الرسائل وفيهِ امثلةٌ من حكاياتٍ وغيرها باللغة العاميّة المصرية كتبها بالحروف المذكورة فكانت نوعاً من الكرشوني[1] الا انهُ متفرنج كاكثر اهل الشرق في هذه الايام واذا قُرئت جآء لفظهـا اشبه بلفظ رجلٍ افرنجي يتعلم العربية ولا سيما في في امرِ الحركات التي عبّر عنها باحرف المدّ فاذا نطق بها العربي توهم سامعهُ انهُ يقلّد كلام احد الافرنج المقيمين في هذه الديار . واغرب من ذلك انهُ زعم ان تعلُّم هذه الحروف اسهل تناولاً على الأُمّي من ابنآء مصر وانهـا افضل ذريعةٍ لتعميم القرآءة في القطر وكانهُ توهم ابن مصر رجلاً من ابنآء امتهِ قد تعلَّم القرآءة بحروف لغتهِ فكان تعلُّم قرآءة العربية بحرفٍ يعرفهُ اسهل عليهِ واقلّ كلفةً من ان يتعلمها بحرفٍ جديد .. والاّ فان لم يكن بدٌّ لمتعلم القرآءة من ان يتعلم اشكال ثمانية وعشرين حرفاً فما الفرق بين ان يتعلمها بهذه الصورة او بتلك . وان قيل ان صورة الحرف الواحد تختلف احياناً بحسب موقعهِ من الكلمة قلنا وهذا ايضاً لا تخلو منهُ الحروف

(١) هو العربي المكتوب بالحرف السرياني

اللاتينية بل قد تكون صورتا الحرف الواحد فيها ابعد مماثلةً

على ان الامر طُوي من ذلك الحين ولم يصادف من احدٍ اهتماماً الى ان ظهر في هذه الايام كتابٌ ألفهُ المستر وِلمُور احد قضاة محكمة الاستئناف الاهليـة على الطريقة المذكورة جمع فيهِ ما تسنَّى لهُ من قواعد اللغة العامية المصرية على وجهٍ يقرّب من الاجنبي تناولها والتكلم بها . والكتاب في هذا الحدّ يُعَدّ ولا جرم خدمةً جليلة خدم بها قومهُ ولا سيما انهم بعد ان رسخت اقدامهم في هذه الديار لم يبقَ بهم غنىً عن تعلُّم لغة البلاد فاختصر لهم الطريق الى هذه البغية بحيث صار يمكن الانكليزي ان يتعلم العربية بحرف لغتهِ . ولهذا المعنى خصص هو وغيرهُ ممن عني بهذا الامر اللغة العاميـة المصرية وقد افصح بذلك صاحب الاجبشن غازيت فيما استهلّ بهِ كلامهُ عند ذكرهِ لهذا الكتاب حيث قال ما معناهُ « انهُ في مدة هذه التسع عشرة سنة (اي منذ حلول الانكليز في القطر المصري) حاول عدة اناسٍ من الانكليـز ان يضعوا مؤلفاتٍ لقواعد العربية المحدثة ومفرداتها » الى آخر ما ذكرهُ . ولكن المؤلف وبعض اخوانهِ ممن علَّقوا التعاليق في الكتاب وممن قرظوهُ في جرائدهم لم يقفوا عند هذا الغرض من صنيع المؤلّف ولكنهم ذهبوا الى ما وراء ذلك من وجوب نسخ اللغة الفصحى من البلاد واحلال اللغة العامية مكانها مع كتابتها بالحرف اللاتيني على مثل ما ذهب اليهِ صاحب الرسائل المقدَّم ذكرها . وحجتهم في ذلك ان اللغة الفصحى لغةٌ قديمة ميتة قد انقطع عهد الالسنة بها من زمنٍ مديد فلم تبقَ صالحةً لنشر المباحث والاكتشافات العلمية وانما تنتشر فوائد العلم

باللغة الحية التي تتفاهم بها الامة لا باللغة التي لا توجد الا في بطون الاسفار. واذا كان ذلك ووجب استبدال اللغة العامية من اللغة الفصحى لزم تبديل اشكال الحروف ايضاً لان حروف الهجاء العربية لا تؤدي الاصوات بتمامها اذ لا صورة بينها للحركات بل هي قد لا تؤدّي بعض اللفظ الجاري على الألسنة في اللغة العامية نفسها

وهناك سببٌ آخر وهو أن الاجنبيّ الذي يتعلم العربية يرى في كتبها الفاظاً لا يعرفها الا المتعلمون فضلاً عما يجد من الصعوبة في لفظها لما تقدم من عدم وجود صور الحركات مرسومةً في هجآء الكلمات على مثل ما هو الحال في لغات اوربا

ويؤخذ من كلام المؤلف وبعض الجرائد الانكليزية في القطر الايمآء الى لزوم ادخال هذه الطريقة في المدارس اي مدارس الحكومة مع جعل التعليم اجبارياً بحيث انهُ لا يمضي زمنٌ قصير حتى يعمّ استعمالها في البلاد وتكون الضربة القاضية على اللغة الفصحى واسفارها

ولايخفى ان الحجة الكبرى في ذلك كلهِ الفرق الذي حدث بين اللغة العامية واللغة الفصحى حتى صارتا في نظر الاجنبي كانهما لغتان متباينتان بحيث يتعذر على العاميّ فهم اللغة المكتوبة. ولكن ذلك وهمٌ دسّهُ على اولئك القوم الجهل بلغة البلاد لانهم لو كانوا يعرفون العربية كما يعرفها اهلها لعلموا ان معظم الفرق بين اللغتين مقصورٌ في الغالب على اهمال علامات الاعراب من اللسان العاميّ بحيث اصبح مسموع اللفظين متبايناً على الجملة. الا ان هذا انما تتنكر بهِ اللغة في سماع الاجنبيّ لا في سماع اهلها

الا ترى ان العامي منا لو سمع قائلاً يقول رأيت زيداً وجآء الرجلان والمؤمنون يذهبون لم يلتبس عليهِ لفظ زيد بسبب ما اتصل بهِ من التنوين ولم يجد فرقاً بين الرجلان والرجلين ولا بين المؤمنون والمؤمنين ويذهبون ويذهبوا وانما هذا كلهُ مما يشكل على الاجنبي الذي لم يتعلم الا لغة العامة. ومن اعظم الشواهد على ذلك ان العامة منا يقرأون ويسمعون الجرائد وكتب الروايات والاقاصيص الحديثة والقديمة من مثل سيرة بني هلال وعنترة واحاديث الف ليلة وليلة وغيرها ويفهمونها ويروونها مع ان جميعها مكتوبة باللغة الفصيحة . اجل لا ننكر ان العامي لا يفهم بعض لغة الحريري مثلاً والمتنبي ولا لغة امرئ القيس وعُبَيد بن الابرص الا ان مثل كلام هؤلآء لا يدخل في هذا البحث لان لغة الجاهلية قد أُهملت من زمن طويل فلا يكتب بها احد بل اصبح كثيرٌ منها مما لا يفهمهُ حتى الخاصّة ولغة الحريري نسجٌ مخصوص قُصد بهِ التفنن في اللغة والايغال في غريبها والتبسط في فنون البديع والاكثار من الاستعارات والكنايات وغيرها ولكن هذا لم يكن مطرداً في جميع كتاباتهِ بل لا تكاد تجد لهُ شيئاً منهُ في غير مقاماتهِ . وقس على ذلك رسائل الخاصة من مثل البديع والصابي والخوارزمي وهي ايضاً لغةٌ خاصةٌ لهم يتداولونها بينهم ويتأنقون في السجع ومذاهب البلاغة ولكنهم اذا كتبوا في غير ذلك من نحو رواية خبر او تقرير مسئلة كتبوا بغير هذه اللغة كما تشهد بهِ كتاباتهم الباقية الى اليوم . ومعلومٌ ان اللغة طبقات منها بعد عهد الجاهلية الكتابات التي تُقصَد بها الخاصة كالتي اشير اليها ومنها الكتابات التي تُلقى الى جمهور المتأدبين

مثل تعريب كليلة ودمنة واخبار الاغاني ومقدمة ابن خلدون وما في هذه الطبقة يُتأنق فيها ولا يُبلَغ بها حدّ الغرابة ومنها ما يُلقى الى العامة مثل كتاب الف ليلة وليلة وكتب النوادر والاقاصيص المختلفة وهي الكتابة الشائعة في المخاطبات والمعاملات ومنها كتابة الجرائد ونحوها في هذه الايام . وهذا النمط الاخير تفهمهُ العامة بتمامهِ ولا يقف دون فهمها لهُ تبديل بعض المقاطع مما تحرَّف على ألسنتها وهو قليل او تغيير شيء من هيئة بعض الكلمات بسبب الاعراب وهو لا يلزم الا نادراً واما اوضاع اللغة الاصلية من الاسمآء والافعال والحروف فهي في كلام العامة الالفاظ الفصيحة بعينها ما خلا الفاظاً قليلة من المرتجلة او المنقولة عن اللغات الاجنبية وهي لا تغير جوهر اللغة ولا تلقي عليها صبغةً اخرى

والذي عندنا ان السبب الواقعي في هذه الحركة والداعي الى احداث هذا الانقلاب العظيم في الامة هو السبب المذكور آخراً وهو ما يجدهُ الاجنبي في اللغة المكتوبة من الالفاظ التي لا يفهمها الا المتعلمون وحينئذٍ كان يجد من نفسهِ انهُ لا بدّ لهُ من تعلم اللغتين جميعاً لانهُ لو تعلم اللغة العامية وحدها بقيت اللغة الفصحى مبهمةً عليهِ ولو تعلم الفصحى وحدها سمع من الفاظ العامة ما لا يفهمهُ لان ادنى تغيير في صورة اللفظة يقف حجاباً بينهُ وبين فهم معناها . والقوم لا يستغنون عن كلتا اللغتين احداها للمفاوضات اللسانية والمصالح اليومية والاخرى لفهم ما يُكتَب ولا سيما في الجرائد السياسية ولا نقول في اوراق الحكومة لان لهذه لغةً ثالثة لا تُعَدّ من هذه ولا تلك ونعني بها اللغة المعروفة بلغة الدواوين ... وهذه

لا نعلم باي طريقة ينوون ان يتداركوها

واما كون اللغة العامية اصلح لنشر المباحث العلمية فلعلهُ لا يخلو من الصحة والذي نقدّرهُ من معنى هذا القول انهُ لما كانت هذه اللغة فاقدة الروابط والفاظها غير مقيَّدة باوزانٍ محرَّرة ولا معرَّضة للحركات الاعرابية كالصيغ الفصيحة كان من الممكن ان تُدخَل فيها جميع الالفاظ الاعجمية المستحدثة في العلم والصناعة وغيرهما من غير حاجةٍ الى وضع مرادفاتٍ لها من العربية او افراغها في قالبٍ من قوالب التعريب وحينئذٍ تكون منزلتها من هذه الجهة منزلة اللغة التركية في هذه الايام . وهذا ولا جرم من الامور التي ينبغي لكل عربيٍّ ان يعيرها نظرة اهتمام فان اضطرارنا الى ادخال علوم العصر في مدارسنا مما لا كلام فيهِ ولكن اكثر مصطلحات تلك العلوم لا لفظ لهُ في لساننا لانهُ مما استُحدِث بعد انقطاع عهد العلم عند العرب بل ربما نشأ هناك فروعٌ من العلم لم يكن لها رسمٌ عندهم ولا عرفوا شيئاً منها كالكهربائية والبخار وغيرهما فضلاً عن العلوم التي تبدَّل رسمها كالكيمياء والهيئة وفضلاً عن اسماء الآلات والمصطلحات الصناعية بحيث كان اكثر اللغة العلمية مما لا مرادف لهُ عندنا واصبح لا يمكن التعبير عنهُ الا باحد وجهين اما بان نستخدم الالفاظ الاعجمية عينها وهي تباين الاوضاع العربية في اوزانها ومقاطعها فتؤدي الى تشويه وجه اللغة وافساد محاسنها واما بان نتكلف تعريب بعضها ووضع مرادفاتٍ للبعض الآخر وهذا على ما نرى لا موضع لهُ اليوم مع انقطاع ائمة اللغة عندنا الى بعض صحف الاوائل ينقّبون في خلال سطورها ويبحثون عما تحت الفاظها

وحروفها من المغازي والاسرار ومع اشتغال الكتّاب منا بتقويم أَوَد السياسة والذود عن حياض الشرق بأسنّة اقلامهم الماضية ..... وما دام اصحاب اللغة نائمين عن الاهتمام بسدّ ثُلَمها والمصير بها الى مجاراة لغات العصر فهي ولا محالة صائرةٌ الى اقبح مما اشار بهِ مؤلف الكتاب ومَن على رأيهِ بحيث ان اللغة العلمية ولغة الحديث ستصبح كلتاهما فرعاً من المالطية ولا تبقى اللغة الفصحى الا في الجوامع والمحاكم وهذا معنى موت اللغة لا توصف اللغات الميتة بغير ذلك . فان كانوا راضين بهذا فهو متسنٍّ لهم من اليوم ولا نرى وجهاً لاعتراض بعض الجرائد على صاحب الكتاب فانهُ قد صدقنا النصيحة ولم يُشِر الا بما يعود الى ترقية عقول الامة والا بقي ابن الشرق في القرن العشرين كما كان البدويّ في زمن الجاهلية

واما مسئلة الكتابة وعدم وجود صورٍ لاصوات الحركات في رسم الهجآء العربي فمما لا يُبالَى بهِ بالقياس الى الامة نفسها ان كان النظر اليها مجرداً ولو كان من اصعب العقبات بالقياس الى الاجنبيّ الذي يروم تعلم اللغة والقرآءة في كتبها . وهذا على الحقيقة من المشاكل التي يعسر حلّها لان للحركات عندنا مقادير لا تتعداها فاذا رُسمت بالحروف كما هو الشأن في اللغات الاوربية جآء لفظ الكلمات منكَّراً وربما التبس بعضها ببعض فلم يبقَ فرقٌ بين سلِم مثلاً وسالِم وسليم اذ يكون بعد السين الف وبعد اللام يآءٌ في الشكل وقد يجيء ما هو انكر من ذلك كما في مثل قتَل وقاتَل لما هناك من الاختلاف الفاحش في المعنى وحينئذٍ لا يبقى غنىً عن وضع علاماتٍ تميز الحركة من الحرف فعاد الامر الى الشكل وهو يغني وحدهُ

بدون الحروف . وذلك فضلاً عما في التزام التحريك في الرسم سوآءٌ كان بالحرف العربي ام اللاتيني من اطالة هجآء الكلمات واقتضآء الكتابة زمناً اطول الى ضعفٍ آخر في الاقلّ . فجملة ما يقال ان الحركات في العربية لا تُكتَب الا بصورة حركات لان لفظها ليس لفظ الحروف الكاملة ولا هي داخلة في بنية الكلمات وانما الغرض الاصلي منها الانتقال من مقطع الى مقطع لكن غاية ما هناك انهُ يمكن استنباط طريقة تمكّن المطابع من وضع الحركات على وجهٍ اسهل وحينئذٍ لا يُشكَل الا الحرف الذي يمكن التباسهُ ولو على الاجنبي فتكون مطبوعاتنا على مثال بعض الكتب التي تُطبَع للتعليم في المدارس وان كان الامر على كل حال فيهِ من الصعوبة ما فيهِ

بقي انهُ على تقدير خروج هذا الرأي الى الفعل فان ما يتخلص منهُ الاجنبيّ يقع فيهِ الوطنيّ بل يقع في اشدّ مضضاً منهُ على ما سنذكرهُ . ونعني بالوطني هنا المسلم الذي هو العنصر الغالب في البلاد فانهُ مع تعليمهِ قواعد اللغة العامية لا يستغني عن تعلم اللغة الفصحى لإِحكام قرآءة القرآن وتلقّي الحديث وفهم نصوص الشرع المبنية عليهما ولا بدّ لبلوغ هذه المنزلة من قرآءة كتب النحو والبيان واللغة وسائر علوم الادب . وهذه كلها ان لم يتعلمها في مدارس البلاد لزمهُ ان يتعلمها في مدارس اخرى خاصة او يدرسها في منزلهِ وكلاهما لا يستطيعهُ الا الاغنيآء فضلاً عما فيهِ من المشقة واضاعة الزمن . وكذلك يلزمهُ ان يتعلم قرآءتين احداهما بالحرف العربيّ لتلاوة القرآن لانهُ لا يجوز لهُ ان يكتبهُ بحرفٍ اجنبي الا عند الضرورة على خلاف والاخرى بالحرف اللاتيني المصطلح عليهِ في البلاد

لمطالعة ما يُنشر فيها من الكتب والجرائد ولدراسة العلوم العصرية التي يرام كتابتها باللغة والحرف المذكورين على ما اشير اليهِ في التأليف ولا نخال التسليم بذلك كلهِ من الامور المستسهلة . ومن هنا يعلم المؤلف وغيرهُ ان العربية لا تقاس في ذلك بالطليانية واليونانية اذ ليس في هاتين اللغتين شيء من الامر الديني الذي اشرنا اليهِ بل فيما حدث اخيراً في امر ترجمة الانجيل الى اليونانية الحديثة عبرةٌ كافية مع انتفآء المحذور الذي ذكرناهُ . وبقي ورآء ذلك كلهِ ما يترتب على هذا الانقلاب من الخسران الجسيم بضياع ما لا يُحصَى من كتب العلم والتاريخ وغيرهما بحيث يتعذر نقل هذه الكتب باسرها الى الحرف الجديد ولا يبقى سبيلٌ للاعقاب الى تناول ما فيها اذا تغير الحرف الذي يقرأون بهِ . ولذلك فالذي نراهُ لواضعي هذه الطريقة ان يقتصروا فيها على تعليم الاجنبيّ لغة البلاد ولا يتجاوزوا الى ما ورآء ذلك من التبديل في شؤون الامة فان محاولة هذا الاحداث فيها ليس في شيء من الحكمة ولا هو من الامور التي يساعدها الامكان

المرأة

بقلم حضرة الكاتب نجيب افندي ماضي

(تتمة ما سبق)

على ان العلمآء مختلفون في امر الحجاب وقد ظهر من مناقشاتهم فيهِ انهُ لا يوجد نصٌّ صريح يوجبهُ او يحدّدهُ تحديداً واضحاً والروايات عن الصحابة وأئمة الدين في ايجابهِ وتركهِ مختلفة ايضاً وحينئذٍ فالامر عائدٌ الى رأي كل

فردٍ من الامة وهواهُ فمن مال الى التشديد في الحجاب لم يعدم ما يؤيد رأيهُ وكذلك من مال الى تركهِ والتساهل فيهِ يجد من النص والعادة ما يبيحهُ . ومهما يكن من هذا الامر فليس من ولايتنا الدخول فيهِ فنتركهُ لاربابهِ وانما نوجه كلامنا الى ما أُلف من معاملة المرأة الشرقية مسلمةً أو غير مسلمة مما قضت بهِ العادة والاستمرار حتى صار من الامور الراسخة في هيئة المجتمع الشرقي

وقد عُلم مما تقدم لنا من تاريخ المرأة على العموم انها كانت منذ وجودها محتقرةً مهانة لا تُعتبَر الاّ بمنزلة خادمٍ للرجل او بمثابة آلةٍ صمآء يديرها كيف شآء وشآءت اهوآؤهُ لانهُ رآها كائناً ضعيفاً فتسلَّط عليها تسلطهُ على ما حولهُ من الخلائق التي هي اضعف منهُ قوةً واستبدّ عليها حتى في شؤونها الخاصة . فكانت معاملتهُ لها بذلك مما جعلها في حالةٍ لا تستدعي تنبُّه قواها العقلية لما كان عليها من الضغط والاستبداد واعتزال كل ما يقتضي إعمال الفكر في الامور ويورث الخبرة واتساع نطاق المدركات . وهذا عينهُ هو الذي اوقع في اعتقاد الرجل انها دونهُ عقلاً واستعداداً لادراك الامور ولذلك لم يكن يعاملها الا معاملة القاصر ولا يفوض اليها شيئاً من المهمات حتى فيما تحت ولايتها من التربية وسائر الامور البيتية التي خُلقت لها وجعلتها الطبيعة قيّمةً عليها . وتتابعت عليها العصور الطويلة وهي في هذه الحال محرومةٌ حرية الرأي والعمل مكرَهةٌ على الانقياد الى مشيئة الرجل واقفةٌ تحت رحمة قضآئهِ حتى انتهت الى ايامنا الحاضرة بعد ان اضناها الاستعباد واثقلها الظلم والاستبداد واشرق عليها نور العلم والحرية بما

بصرها بحقوقها واطلق لسانها من اعتقاله فوقفت رافعةً دعواها ناطقةً بحجتها مطالبةً بما سلبها الرجل من الحقوق التي وهبها لها الخالق واظهرت من قوة برهانها ما حمل الرجل على التسليم بمطالبها والاخذ بيدها حتى وصلت الى ما هي عليه من مساواة بعض افراده وتقدمها على البعض الآخر

اجل لا يُنكَر ان القوى العاقلة في المرأة على العموم اضعف مما هي في الرجل ولكن هذا الضعف يرجع الى مثل ما ذكرناهُ من قلة مزاولتها للامور العقلية وانحصارها منها في نطاقٍ ضيّق لانها وان خرجت من تحت سلطان الرجل فلن تخرج من تحت سلطان الطبيعة التي جعلت لها من مشاغل الحمل والوضع والتربية وتدبير الاحوال البيتية ما لا قِبَل لها معهُ بالتفرغ لمزاولة المدارك العقلية والتوسع في المباحث العلمية والصناعية والخوض في الامور السياسية والقضائية . ولكن هذا لا ينفي انها كائنٌ بشريٌّ عاقل متصف باوصاف مقابلة لاوصاف الرجل وان فيها استعداداً للاشتغال بذلك كلهِ لو تسنى لها التفرغ لهُ وفيما اشتهر من الدرجة التي وصلت اليها بعض نسآء اوربا واميركا مما تقدم لنا الالماع اليه ما لا حاجة معهُ الى برهان . فالمرأة اذن جديرة بان يُعتَنى بها ويُحرَص على تربيتها وتثقيفها اولاً لتكون سعيدةً في هذه الحياة عارفةً من احوالها ما تستطيع ان تجني نفعهُ وتتقي ضررهُ وليسعد الرجل بمعاشرتها ويجد فيها شخصاً جديراً بمساعدته على قطع مراحل العمر ومساهمتهِ في افكارهِ وملذاتهِ العقلية وتعزيتهِ عند وقوع المكاره . وثانياً لانهُ عليها يتوقف حال خلفهِ من بعدهِ وما يكون من سعادتهم وسعادة الوطن بهم واحياء ذكره بما اذا ترك الدنيا تركها وهو

قرير العين مطمئنّ البال بانهُ قد استخلف على مالهِ وشرفهِ من يحافظ عليهما ولا يكون سبباً في هدم مجدهِ واضاعة جهدهِ . واذ كانت هذه منزلة المرأة من المجتمع الانساني وعليها يتوقف حال الهيئة على الخصوص والعموم وفي الحال والاستقبال وجب ان يُفرَغ الجهد في تثقيفها وتهذيبها وان يُطلَق لها العنان في تحصيل كل ما امكنها من العلوم والفنون لا بقصد ان تنقطع لمزاولة تلك العلوم والتكسب بها بل لتستعين بها على اتمام وظيفتها من مشاركة الرجل في آرآئهِ واحسان تربية ابنآئها والقيام على شؤون منزلها والاقتصاد في نفقات المعيشة والابتعاد عن اخطار الجهل واجتناب الرذائل والتمسك بعُرى الآداب والفضائل اذ لا يخفى ما للجهل من الاخطار التي يقع فيها الانسان ذكراً كان ام انثى وذلك لقصورهِ عن ادراك الحقائق فيرتكب ما يحرّمهُ الدين والآداب وهو يجهل حقيقة ما يرتكبهُ وما يترتب عليهِ من العواقب

على ان المدارس مهما ارتقت واتسعت لا تلقن التلميذ كل ما يلزمهُ للسلوك بين اهل المجتمع بحيث يستطيع ان يكون فيهِ عضواً ذا فائدة ويأمن ان تسري اليهِ ادوآء غيرهِ من الاعضآء الفاسدة لان وظيفة المدرسة ان تفتح عيني الطالب حتى يبصر بهما ما يراهُ بعد خروجهِ منها ولكن ليس في وسعها ان تصف لهُ كل ما سيمرّ بهِ من الامور النافعة والضارّة وانما تلك امورٌ يستفيدها بالمعاشرة والمطالعة ولذلك لا بد لهُ من مخالطة اهل العلم والذوق وانتياب المجالس الادبية ومزاولة البحث والتنقيب بنفسهِ كلما استطاع الى ذلك سبيلاً . وانظر في ذلك الى غالب التلامذة القريبي العهد بالخروج

من المدارس فانهم مع احرازهم القدر الكافي من العلوم التي درسوها يكونون اغراراً في الامور الاجتماعية قد تجوز عليهم ابسط الخُدَع واظهرها للمجرَّب الذي عرك الحوادث وسبر اخلاق الناس واحوالها . وما يقال في ذلك عن الرجل يقال عن المرأة فان الدروس العلمية وحدها غير كافيةٍ لها ولكن لا بد من اختبار العالم بعد احرازها حتى تستطيع ان تتخذها آلةً لتصرُّفها والا كانت تلك الدروس بمنزلة رأس مالٍ واسع في يد من لا يحسن التجارة ولم يختبر احوالها وكيفية الاتجار باموالهِ

واما سلطة الرجل على المرأة واستواؤُهُ رأساً لها وقيّماً عليها فذلك مما سنَّهُ جهل المرأة في الازمنة الاولى وقصورها عن سياسة نفسها بحيث كان مثلها مثل الولد القاصر يكون كل تدبيرهِ موكولاً الى والدهِ او وصيّهِ لانهُ لا يحسن القيام بامور نفسهِ . وهذا هو عين السبب في بقآء المرأة الشرقية تحت ربقة سلطان الرجل بخلاف الاوربية والاميركانية ولكنها متى تعلمت ورشدت فانها تتحرر من تلقآء نفسها لانها تظهر للرجل بمظهرٍ من المعرفة والذوق والكفاية في الامور يدعوهُ الى احترامها وتكون قادرةً على القيام بشؤون نفسها ومشاطرتهِ اتعابهُ بحيث تكون لديهِ بمنزلة الشريك المعاون على مهمات الحياة لا بمنزلة القاصر الذي يحتاج الى تدبير غيرهِ لهُ . وقد شرعنا نرى في بلادنا مبادئ ذلك في اللواتي خرجنَ من المدارس فهنَّ عائشاتٌ مع ازواجهنَّ مكرَّماتٍ سائداتٍ في منازلهنَّ ومع ما نرى من تنبه الشرقيين في اكثر الاصقاع الى تعليم الاناث وتثقيف عقولهنَّ فان حرية المرأة عندنا ستنتشر شيئاً فشيئاً وبذلك تزداد البلاد ضعف عدد العاملين

في انهاضها حساً ومعنىً وتُنتشَل الامة من وهدة الخمول والجهل الى قمة المجد والعرفان

الكمأة

هي هذا النوع من النبات الذي يؤكل شبيه المنظر بالقلقاس الافرنجي الا انهُ لا ساق لهُ ولا عروق وهو يختلف من حجم الجوزة الى حجم البيضة . قال في تاج العروس هو نباتٌ ينقّض الارض فيخرج كما يخرج الفُطر وقيل هو شحم الارض والعرب تسميه جُدَري الارض . وقال ابن البيطار هو اصلٌ مستدير لا ورق لهُ ولا ساق لونهُ الى الحمرة ماهي ويوجد في الربيع ويؤكل نيئهُ ومطبوخهُ

والكمأة اصناف فمنها ما يكون لونها الى السواد وهي اجودها واليها ينصرف اللفظ عند الاطلاق ومنها ما يكون لونها الى الحمرة ويقال لها الجبء او الى البياض وتسمى الفقع . قال ابن البيطار الفقع شيءٌ يكون تحت الارض بقرب المياه وهو مدوَّر ابيض اكبر من الكمأة يوجد في الارض وكل واحدةٍ منهُ قد شُققّت ثلاث او اربع قِطَع الا ان بعضها ملتصق ببعض . وقال ابو حنيفة الفقع يطلع من الارض فيظهر ابيض وهو رديءٌ والجيّد ما حفُر عنهُ واستُخرج . اه . ومنها صنفٌ رابع يسمى بنات أَوبَر وهي صغار الكمأة تكون ذات زَغَب ولا طعم لها ولا رائحة وهي رديئة عسرة الهضم

والكمأة توجد في جميع انحاء الارض وتنبت في الاراضي الرطبة

الصلصالية التي يخالطها رمل وبين اشجار السنديان والشاهبلّوط وتكون على عمق ١٥ الى ٢٥ سنتيمتراً . اما كيفية تكوُّنها فقد تشعبت فيها الاقاويل لانها لا بزر لها ولا جذور ولا يظهر لها شيءٌ من سائر اعضاء النبات ولذلك قال القزويني انها تنطبخ في اعماق الارض كما تنطبخ الجواهر . وتذهب العامّة عندنا الى انها تتولد من الرعد ونقل مثل هذا القول عن العامّة في اوربا ايضاً وهو عجيب والظاهر ان الحامل عليهِ ان هذا النبات يوجد في زمن الربيع وهو الاوان الذي تكثر فيهِ الصواعق والرعود ولذلك يزعمون ان السنة التي لا يكون فيها رعد لا تنبت فيها الكمأة . وزعم بعض العلماء المتأخرين انها تنشأ من وخز بعض الهوامّ للجذور الشعرية من شجر السنديان فتتكون في موضع الوخز سِلعٌ اي هناتٌ ناتئة على الجذر كما يتكون مثل ذلك على اوراق بعض الشجر واغصانهِ بمثل هذا السبب ومقتضى هذا القول ان الكمأة تتكون من عصارة السنديان وهو مستبعد . وقال غيرهُ انها تتولد من حويصلاتٍ دقيقة تنفصل من كبارها على حدّ ما يتولد اكثر اصناف الفُطر وهذه الحويصلات تتعلق على جذور السنديان فتمتصّ غذاءها منها الى ان تكبر ولذلك تكون على الغالب في جوار هذا الشجر او في جوار شجر البندق وقد توجد على جذور الشاهبَلّوط والزان والحور والدُلب وغيرها . والظاهر انها لا تغتذي في اول امرها الا من صغار الجذور لانها كلما كبرت الشجرة انفرج نطاق الكمأة حولها وتباعدت عن ساقها

اما استنبات الكمأة بالطرائق الزراعية فقد زاولوهُ على عدة اوجه كان

آخرها وانجحها استنباتهُ بواسطة السنديان اي بان زرعوا ثمرةُ المسمَّى بالبلّوط فلما نبت ونمى ظهرت الكمأة على جذورهِ وهي تُستنبت اليوم بهذه الطريقة في كثيرٍ من البلاد ويكون عنها غلالٌ وافرة . اما كيفية زرع البلوط فانهم يأخذونهُ من السنديان الذي سبق نبت الكمأة بجوارهِ ويُختار ان يكون من شجرة قد كثر نبتها حواليهِ مع النظر في صنف الكمأة بحيث لا يكون من الاصناف الرديئة . ويُزرَع في اول الربيع في ارضٍ كلسية على خطوطٍ متجهة من الشمال الى الجنوب يُجعَل بين كل خطين منها مسافة ٥ او ٦ امتار ويكون بين البلوطة واختها على الصف الواحد نحو ٥٠ سنتيمتراً ويُستحَبّ ان يُجعَل حول الحبّة عند زرعها شيءٌ من تراب المكمأة اي الموضع الذي تنبت فيهِ الكمأة . وتُفلَح الارض فلاحة غير عميقة تكرَّر مرّتين في السنة في الربيع والخريف على مدة خمس او ست سنوات الى ان تبدأ الكمأة بالظهور و بعد ذلك تُفلَح مرةً واحدة في السنة في الربيع

اما جنى الكمأة فيستخدمون لهُ الكلاب يؤدّبونها على ذلك بان يخبأوا للكلب قطعةً من الكمأة يغطونها بالتراب ويجعلون معها قطعة شحم فاذا وجدها تركوا لهُ الشحمة حتى يصير بعد ذلك اذا شمّ ريح الكمأة في موضعٍ يأخذ في بحث التراب فيُعرَف مكانها . ومنهم من يستخدم في ذلك الخنازير وهي اشدّ شماً من الكلاب حتى تشمّ رائحة الكمأة على بعد ٥٠ متراً . وقد يُستدَلّ عليها بعلاماتٍ في الارض كتشقق ظاهرها او حوم بعض الذباب عليها وغير ذلك مما يُعرَف بادمان الاختبار

اصلاح العاهات الجسمية

من المشهور في اعمال الجراحة انهُ اذا حدثت عاهةٌ في بعض اعضاء الوجه ولا سيما في الانف بان يتأكل لمرض او يُهشَم بضربةٍ او سقطة يصلحون ذلك الموضع بان يلحموا عليهِ قطعةً من جلد سائر البدن على نحو طريقة التطعيم في الشجر . وهذه الطريقة قديمة العهد جدًّا قيل واول من استعملها اهل الهند لان حكامهم كانوا يعاقبون المجرمين بقطع الانف او الاذن او الشفة فكان المجرم يجهد في اصلاح ما قُطع منهُ اخفآء لأثر العقوبة . وكانوا اولاً يردّون العضو المقطوع بنفسهِ فيلتحم فلما رأت الحكومة ذلك امرت بالقآء العضو بعد قطعهِ في النار حتى لا يبقى سبيلٌ الى ردّهِ فاصطلحوا على ان يعوّضوهُ من جلد سائر البدن ولا سيما جلد الجبهة وهي الطريقة الهندية .

ثم انتقلت هذه الطريقة من الهند الى فارس وسائر البلاد الآسَوية وكانت معروفةً عند اليونان والرومان ايضاً ثم أُغفلت في القرون المتوسطة فلم يبقَ من يعانيها الى ان جُدّدت في القرن الخامس عشر في ايطاليا على يد عشيرةٍ مشهورةٍ بالجراحة تُعرَف بال برَنْكا لكنهم اصطلحوا على ان يأخذوا الجلد المطعَّم بهِ من غير الجبهة واكثر ما كانوا يأخذونهُ من الذراع وهي الطريقة الطليانية . واصطلح بعضهم لتخفيف هذه المؤونة المضاعفة على الشخص المشوَّه ان يستعيضوا في بعض الاحوال بجلد الضفدع الا انهم وجدوا هذه الطريقة لا يطَّرد نجاحها فاهملوها

ومهما يكن فان هذا العمل من الاعمال الدقيقة الصعبة لانهُ يستلزم

اولاً صنع قالب للانف يوافق شكلهُ يؤخذ من طرف عظم الجبهة وبعد ان يُحكَم وضعهُ في مكانهِ يغطى بقطعةٍ من جلد الجبهة او غيرها تُخاط وتُترَك الى ان تلتحم ولا يكون ذلك في اقلّ من ٢٥ يوماً . وقد يتفق انهُ بعد ان يتمّ العمل كما ذُكر لا يثبت الانف على شكلهِ لان العظم الذي يوضع هناك كثيراً ما يُمتصّ ثم يرقّ الجلد الذي عليهِ ويضمر فيرجع العضو مشوَّهاً

وقد ورد في هذه الايام في بعض المجلات العلمية ان جرّاحاً من اطباء ڤينّا يقال لهُ المسيو جرسوني وُفّق الى استنباط طريقةٍ هي اسهل بما لا يقاس واثبت نجاحاً من الطريقة المتقدمة وذلك باستخدام الشحم المعدنيّ المعروف بالڤازلين . وكيفية استخدامهِ انهُ يعمد الى الانف الذي فيهِ انخسافٌ خلقيٌّ او طارئٌ بسبب من الاسباب ويحقن تحت الجلد في الموضع المشوَّه مقدار سنتيمترين او ثلاثة سنتيمترات مكعبة من هذا الشحم بعد ان يسيّلهُ بالحرارة فيتمدّد جلد الانف عند دخول الشحم تحتهُ ويرتفع . والشحم المذكور يجمد على ٢٧ درجة من الحرارة وهي الحرارة الطبيعية للجسم فاذا تمّ الحقن بهِ لا يبقى الا ان تسوَّى هيئة الانف في اثناء تبرُّدهِ الى ان يصير على الشكل المُبتغَى وحينئذٍ يكون منظرهُ طبيعياً كاملاً

وقد تبين من امتحان هذا الشحم في بعض الحيوانات انهُ لا يمتصّهُ الجلد ولكن يبقى في مكانهِ وفضلاً عن ذلك فانهُ ينشأ حولهُ وفي خلالهِ نسيجٌ من المادة الحية يشبه الخيوط المشتبكة فيكون كنوعٍ من اللبّاد قد ملئت خلاياهُ بالشحم المعدني وهذا مما يدل على ان العضو بعد معالجتهِ بهذه الطريقة يثبت على الهيئة التي يُصلَح عليها ولا يُخشَى ان يطرأ عليهِ تغيير

وقد روت لهُ المجلة المذكورة عدة اعمالٍ غريبة منها ان ولداً استؤصل احد جانبي فكهِ الاعلى على اثر حدوث سرطانٍ فيهِ وبعد التئام الجراحة قَصُرَ ما حولها من الجلد واجتذب جفن العين الاسفل فبقيت المقلة مكشوفة بحيث كان مع تشوُّه منظرهِ لا يؤمن ان تتلف عينهُ . فحقنهُ في موضع الجراحة دفعاتٍ مكررة حتى امتلأ الموضع وتكوَّن لهُ هناك فكٌّ جديد وارتدَّ الجفن الى موضعهِ . ومنها ان فتاةً كان بها نقصٌ في غار الفم بحيث لم تكن تستطيع ان تلفظ الجيم الحلقيـة لان اللهاة كانت اقصر من ان تبلغ الحلق فحقن لها غشآء الغار بالشحم فقربت اللهاة ثم اعاد الحقن تحت الغشآء المخاطي من الحلق فهبط فاستقام لفظها . وروت لهُ غير ذلك مما لا نطيل بهِ ومما ان صح كانت لهُ فوائد لا تحصى وكفى اصحاب هذه العاهات آلام الاعمال الجراحية وخطرها

اصل الروم الملكيين

هو البحث الذي خاض فيهِ بعض الآبآء اليسوعيين منذ حين وما برحوا يجهدون في استنزاف قرائحهم واستفراغ مبلغ علمهم لاستنباط ادلةٍ من التأريخ تثبت ان الملكيين ليسوا من اليونان او تثبت ان مع اليونان غيرهم كانوا يلقبون بهذا اللقب . فهم تارةً يذهبون الى ان الروم الملكيين في سوريا اصلهم من السريان كما تقدم لنا نقل ذلك عنهم في بعض الاجزآء السالفة من هذه السنة وتارةً يذهبون الى ان جميع القائلين بالطبيعتين — ومعلومٌ ان السريان ليسوا منهم — كانوا يلقبون بالملكيين . وهو لعمر

الله من غريب البحث بل من غريب الخلط الذي لا يصدر مثلهُ الا عن امثال اولئك العلماء ... على ان رجوعهم الى هذه المسئلة بعد ما افرغ كنانة البحث فيها حضرة العالم الفاضل الخوري قسطنطين الباشا في كتابهِ الذي اشرنا اليهِ من عهدٍ قريب لا يُعَدّ الا ضرباً من المكابرة بل فنّاً من فنون التمويه الذي عُرف بهِ اولئك الآبآء في جميع مباحثهم ولعلّ ذلك من قواعد سياستهم « الجزويتية » لاعتمادهم فيها على تغرير العقول الضعيفة وتضليل الاذهان الواهنة لسرٍّ يعلمهُ الخبير بامرهم البصير بما يفعلون ...

وقد وردتنا الرسالة الآتية من حضرة الاب الفاضل الخوري انطونيوس اسعد الباسيلي المخلصي يفنّد فيها ما جاء اخيراً في بعض اجزاء المشرق من هذا البحث فاثبتناها بنصها وهي هذه . قال حفظهُ الله

قرأت في العدد الرابع والعشرين من المشرق من سنتهِ الرابعة انتقاداً على مؤلَّف حضرة الاب الفاضل الخوري قسطنطين الباشا الذي عنوانهُ « بحثٌ انتقادي في اصل الروم الملكيين ولغتهم » اورد الكاتب حجتهُ فيهِ بصورة قياسٍ اقتراني يقول فيهِ ما هو بالحرف . « قد اجمع كل المؤرّخين على ان الملكيين هم الذين تبعوا المجمع الخلكيدوني . والحال ان تبعة المجمع الخلكيدوني كانوا من شعوب وعناصر و بلاد مختلفة . فاذن ليس الملكيون من اليونان فقط » . وانا لا اتعرض هنا للبحث في اصل القضية التي بُني عليها هذا الانتقاد فان في المؤلَّف المشار اليهِ ما يكفي لبيان الحقيقة بالنصوص الواضحة المأخوذة عن اكابر المؤرّخين وثقاتهم ولكنني استأذن حضرة منشئ المشرق ان انتقد هذا القياس واظهر ما فيهِ من مخالفة الواقع دفعاً لما ينشأ

عنهُ من الشبهات عند من لم يقف على النصوص التاريخية

وذلك انهُ عرَّف الملكيين في مقدّمتهِ الاولى التي هي الصغرى بانهم « هم الذين تبعوا المجمع الخلكيدوني » فدخل في هذا التعريف كل من تبع المجمع المذكور من الطوائف الشرقية والغربية على الاطلاق . ثم ما كفاهُ ذلك حتى زعم ان هذا القول « قد اجمع عليهِ كل المؤرّخين » (كذا) والصحيح كما لا يجهلهُ الكاتب نفسهُ ان لفظ الملكيين لم يُطلَق على احدٍ سوى اليونان الذين في سوريا ومصر سماهم بهِ السريان والقبط اصحاب الطبيعة الواحدة في البلادين المذكورتين لانقيادهم لامر الملك مركيانوس الذي عضد احكام المجمع الخلكيدوني وامر بتنفيذها . وذلك انهُ لم يتبع المجمع المذكور في هذه البلاد سوى اليونان او الروم ولذلك اختصوّا بهذا الاسم ولم يزالوا معروفين بهِ الى اليوم كما لم يزل اليعاقبة معروفين باسم السريان والقبط وفي ذلك ما يدل على ان العامل الاعظم في هذا الانقسام كان التعصب الجنسيّ الباقي الى يومنا هذا حتى بين الطوائف الكاثوليكية . ولا يخفى ان اللفظة المذكورة كلمةٌ سريانية عربية ومن المعلوم انهُ لم يبقَ بعد المجمع المذكور من يقول بالطبيعة الواحدة الا في سوريا ومصر وما جاورهما من البلاد التي دانت للاسلام بعد الفتح ولم يكن من يعرف السريانية والعربية ويستعمل هذا الاسم الا فيهما ولذلك لم يُعرَف هذا اللفظ عند اليونان ولا عند اللاتين ولا ذكر لهُ في تواريخهم القديمة

اذا ثبت هذا تبين لك ما في عبارتهِ من الاجحاف والايهام لانهُ لم يقيد « الذين تبعوا المجمع الخلكيدوني » بكونهم « من اليونان الذين في

سوريا ومصر » فلزم من عبارتهِ ان كل من تبع المجمع المذكور كان يلقب بالملكي . وهو غير الواقع كما اثبتناهُ وكما يؤخذ جلياً من قولهِ في المقدمة الثانية « ان الذين تبعوا المجمع الخلكيدوني كانوا من شعوب وعناصر وبلاد مختلفة » ولينُظَر كيف يتفق هذا مع ما ذكرناهُ وايدناهُ بالبرهان . وعليهِ فقولهُ اخيراً « فاذن ليس الملكيون من اليونان فقط » هو نقيض الواقع على الخط المستقيم وانما هذا كلهُ صنيع من جعل غرضهُ تأييد حجتهِ ولو بالمغالطة وتبديل الحقائق وكلاهما من الامور التي لا تليق بالتقارير العلمية ولا سيما في التاريخ الذي لا مستندَ لهُ الا اصدق الرواة . فارجو اثبات ذلك في ضيا آئكم الانور ولكم الفضل . انتهى

متفرقات

اكتشاف سيار جديد بين الارض وآروس — أُعلن من اميركا ان المستر ستيوارت اكتشف على صفيحةٍ فوتغرافية قد أُخذت في ١٤ اوغسطس الاخير نجماً صغيراً على ٦٢ْ من الميل الجنوبي وقد أُخذ بعد ذلك ١٤ رسماً عن هذا الجرم امكن منها تقدير مسيرهِ وفلكهِ . وهو اقرب جميع السيارة الصغرى الى الشمس وقد كان بعدهُ عنها في شهر اوغسطس ١،٠٦ من بعد الارض وحُسب ان حركتهُ اليومية منظوراً اليهِ من الشمس تكون ٢٢٠٠ً اي نحو ثلثي درجة فتكون سنتهُ ٥٨٩ يوماً وهي اقصر من سنة آروس باربعة وخمسين يوماً ويتمها من الارض في نحو ٤ سنين (٤،١٣) وفلكهُ مستطيل جداً يبلغ تباينهُ ٢٢ْ و ٨َ

كسوف ١١ نوفمبر — كان من اعمال اللجنة الفرنسوية التي رصدت كسوف

الشمس من القاهرة في اليوم المذكور ان المسيو دلابوم بلوڤينال اخذ رسم طيف الاشعة الشمسية المارّة على حدود قرص القمر فلم يتبين لهُ فيها ادنى امتصاص يدل على وجود جوٍّ للقمر

آثار ادبيّة

الاستقلال — مجلة انتقادية حقوقية اجتماعية ادبية ينشئها حضرة الاصوليّ الفاضل نجيب افندي شقرا المحامي الشهير . وقد انتهى الينا الجزء الاول منها فوجدناهُ مزيناً بعدة مقالات مفيدة في الاغراض المشار اليها وفي ذيلهِ مقدمة مؤلَّفٍ لهُ عنونهُ بكتاب المسؤولية وضعهُ في بيان التبعات التي تترتب على الجرائم الجنائيّة والمدنية وهو مؤلفٌ عظيم الفائدة للخاصة والعامة والمجلة تصدر مرةً في الشهر في ٣٢ صفحة وقد جعل قيمة اشتراكها ريالاً واحداً في السنة فنثني على همة حضرتهِ ثنآء طيباً ونرجو لمجلتهِ مزيد الرواج والانتشار

الاخبار — عادت هذه الجريدة الى الظهور موشّاةً بقلم صاحب امتيازها ومنشئها حضرة الكاتب المتفنن الشيخ يوسف الخازن وقد جعلها يوميةً بعد ان كانت اسبوعية وعين قيمة اشتراكها ستين قرشاً مصريّاً في القاهرة مضافاً اليها اجرة البريد في الخارج . وفيما عهد القرآء من براعة الكاتب وحسن اسلوبهِ في الانشآء ما يغني عن اطرآئها والحث على مطالعتها فنتمنى لها الانتشار والثبات

فكاهات

المحكمة السرّية

كان في مدينة باريز بين قضاة محكمتها العليا فتى يسمى راعول لم يبلغ الثلاثين عاماً من سنيهِ رباهُ والداهُ احسن تربية ولقناهُ مجمل العلوم. وكان منذ طفوليتهِ تظهر على وجههِ الجميل علامات الحذق والذكاء وتوقد الخاطر فاذا وُجد بين رفقائهِ من الغلمان ادرك الناظر لاول وهلة انهُ لا يختلط معهم في العابهم الصبيانية بل يوجه افكارهُ الى غاياتٍ اسمى وخواطر ارفع . ورأى والداهُ ذلك فتيقنا ان لولدهما مستقبلاً حسناً في بلادٍ لا تجهل قيمة افرادها وكانا من المثرين فلم يدَّخرا وسعاً في الانفاق عليهِ وتسهيل السبل لهُ لنيل العلوم والمعارف . وبعد ما خرج من المدرسة وهو في الثامنة عشرة من العمر اصيب في والديهِ فتوفي ابوهُ اولاً وبعد اسبوع توفيت والدتهُ ايضاً فبقي وحيداً لا اهل لهُ ولامعين . غير انهُ تلقى هذه الصواعق المحرقة بصدر رحب ورزانة عجيبة فما انقضت مدة حزنهِ حتى عمد الى املاك ابيهِ وثروتهِ الطائلة فوسع املاكهُ واصلحها واقام العمال الامناء ولبث ساهراً على اعمالهِ وعمالهِ بغاية التيقظ والانتباه

وكان راعول قد اتبع فن المحاماة فنبغ فيهِ وطار صيتهُ في اقطار فرنسا وبعد حين انتدبتهُ الحكومة فعينتهُ قاضياً في المحكمة العليا . وما عتم ان رأى اختلالاً في بعض اعمالها فنقح دستورها وضبط قوانينها وعمد الى اصلاحاتٍ جدية رأى الجميع اصابة رأيهِ فيها فوافقوهُ على اثباتها . وما بلغ الثلاثين من عمرهِ حتى انتخب رئيساً لنفس المحكمة مع ان اكثر القضاة المؤلفة منهم كانوا اكبر منهُ سنًّا الا انهُ كان اوفرهم ذكاءً واوسعهم علماً

---

(١) معربة عن الفرنسوية بقلم نسيب افندي المشعلاني

وكان راعول من اصدق الناس نظرًا في الامور واكثرهم تثبتًا في الاحكام فكان اذا القيت اليه مسئلةٌ يتلبث قليلاً قبل ابدآء رأيهِ فيها حتى يحيط بجميع وجوهها فاذا نطق بحكمهِ لم يمكن ان يرجع فيهِ ولم يكن ذلك عن تصلبٍ في رأيهِ بل لان حكمهُ كان من اول وهلة يصيب كبد الصواب . وهكذا ثبت راعول في مركزهِ لا يهاب شيئًا ولا يخاف ان يقهرهُ احدٌ سوى عدوٍ واحد هاجمهُ بغتةً فاخترق صفحات صدرهِ الفولاذية واستولى على حصن قلبهِ فاستقرَّ فيهِ وهذا العدوّ هو الحب . فان راعول كان قد رأى يومًا ابنة احد الاعيان في مجتمعٍ فاعجبهُ جمال وجهها واعتدال قوامها ولم يحتج راعول الى اكثر من ذلك الوقت لانتقاد سلوكها وآدابها ومعارفها فوجدها لا تبارَى بين بنات جنسها فمال بكليتهِ اليها وشعرت الفتاة بميلهِ وكان عندها اضعاف ذلك مما لم يخفَ على راعول ففاتحها بما في نفسهِ ولم تمضِ ايامٌ كثيرة حتى خطب الفتاة ودعا عددًا من اصدقآئهِ فقضوا ليلةً من اصفى ليالي الدهر دام فيها تعاطي كؤوس المسرات والمخاصرة الى الصباح

ولم تؤثر حالة راعول الحبية في واجباتهِ القضآئية فكان اذا عمد الى عملهِ ينسى الحب والحبيبة ويشمر عن ساعد الحزم والعمل فاذا فرغ من شغل نهارهِ عاد الى مراجعة التقارير الواردة اليهِ عن اشغالهِ الخصوصية ثم يقضي شيئًا من الوقت في النزهة وترويح النفس وفي النهاية يزور خطيبتهُ فيطارحها الغرام والشوق كانهُ عابدٌ ولهٌ

وبعد خطبة راعول بنحو شهرين كان عيد الميلاد المجيد فدُعي الى مأدبة اقامها اهل خطيبتهِ في منتصف تلك الليلة وهي عادة شائعة يتوارد المدعوون فيها الى محل الدعوة قبل نصف الليل ببضع دقائق حتى اذا تكامل عدد المدعوين وازفت الساعة الثانية عشرة قام الجميع يهنئون بعضهم بعضًا ثم دخلوا الى غرفة المأدبة يفتتحون سنتهم بالمسرات . وفي صباح ذلك اليوم نهض راعول وكانت لديهِ اشغالٌ كثيرة آثر القيام بها على كل شيء فصرف نهارهُ في العمل ولم يفرغ الا في الساعة الثامنة مسآءً . فارتدى فوق ثيابهِ جبةً تقيهِ برد الليل وخرج قاصدًا بيت

خطيتهِ فاستقبلهُ خادمهُ وعرض عليهِ ان يطلب لهُ عربةً تقلهُ فاعاد نظرهُ في ساعتهِ وقال لا يزال امامي اكثر من ثلاث ساعات وانا اوثر المشي لاروض جسمي بعد جلوسي طول النهار ثم التفّ بعباءَتهِ وضغط قبعتهُ فوق رأسهِ وسار

واجتاز راعول الشارع الاول الكبير ثم عطف الى شارع اصغر منهُ قد وُضعت فيهِ مصابيح بعيدة بعضها عن بعض وكان الضباب يستر نور المصابيح ثم همى الغيث واقفر الشارع فنظر راعول لعلهُ يجد عربةً يناديها ولكن لم يجد في كل الشارع سواهُ فصوّب خطواتهِ وجدّ في المسير . وما بلغ منتصف الشارع حتى سمع وقع اقدام مسرعة ورآءهُ ثم ادركتهُ فتبين ثلاثة اشخاص فنظر لعلهُ يرى مع احدهم مظلةً يستتر بها معهم ولكنهُ قبل ان يفاتحهم بحديث هجم الثلاثة عليهِ و باسرع من البرق امسك اثنان بذراعيهِ وادخل الثالث في فيهِ منديلاً بطريقة غريبة تمنعهُ عن الكلام او ابدآء اقل صوت وهمس احدهم في اذنهِ ان اتبعنا صامتاً مطيعاً واعلم انهُ عند اقل حركة مقاومة تبدو منك نتركك في هذا الظلام الحالك جثةً باردة . ورأى راعول ان الصمت والانقياد اجدر بهِ فسار بين الثلاثة كالنعجة الى الذبح . و بعد ما ساروا قليلاً قال احدهم اسمح لنا يا حضرة القاضي ان نعصب عينيك فانك تعلم بدون شك اننا لا نريد ان تعرف الى اين نحن سائرون . ولما قال هذا اخرج من جيبهِ منديلاً اسود عصب بهِ عيني راعول ومضوا في طريقهم صامتين . وما زالوا كذلك وهم يذهبون تارةً شمالاً وتارةً يميناً حتى وقفوا امام بابٍ فاعطى زعيمهم اشارةً سرّية ففُتح الباب ولما دخلوا تخلف اثنان منهم واقتاد الزعيم راعول بيمينهِ فصعد بهِ سلماً عدّ راعول درجاتهِ لانهُ مع ما هو فيهِ لم يفارقهُ تيقظهُ فعمد الى التقاط كل اشارة او حركة تبدو لهُ لعلها تنفعهُ في المستقبل . ثم دخل بهِ الى غرفة فاجلس الزعيم راعول على كرسيّ وقال لهُ لا بد انك استغربت عملنا هذا يا حضرة القاضي ويحق لك الاستغراب ولكنني اخبرك الآن اننا لسنا من اللصوص او القتلة كما لعلك توهمت فانك الآن في بيت من اشرف بيوت الفرنسيس وقد احضرناك جبراً لعلمنا اننا لو دعوناك طوعاً لما اتيت ولا سيما لاننا لا نريد ان تعلم مَن نحن

اما الغرض من احضارك فهو خدمةٌ تطلب قضآءها منك ربة المنزل وستلوها هي عليك و بعد ذلك فحياتك او موتك رهن ارادتك انت . واني سارفع العصابة عن عينيك الآن وانزع المنديل من فيك فاياك اذا بقيت حيًّا ان تذكر ما ترى واياك ان يصدر منك صوت استغاثة فانهُ لا منزل بجوارنا الى مسافة نصف ميل . وزد على ذلك ان في المنزل من خدم ربتهِ عددًا ليس بقليل من شرسي الاخلاق اذا سمعوا ندآءك ربما اوقعوا بك قبل صدور الحكم عليك

ولما انهى الرجل كلامهُ رفع العصابة عن عيني راعول ونزع المنديل من فيهِ فرأى راعول نفسهُ في ظلمة حالكة السواد لا يقدر ان يرى فيها شيئًا ثم لمس الزعيم زرًّا كهربآئيًا فاضآء المكان ضوءًا خفيفًا جدًّا تمكن راعول بعدهُ ان يشاهد الغرفة فرآها ردهةً فسيحة جدًّا قد دُهنت جدرانها وسقفها وارضها بلون احمر مشبع وكانت خالية من كل مفروش او اثاث ما خلا الكرسي الجالس عليهِ وثلاث كراسيّ اخر على صفٍّ واحد امامهُ · و بينما هو غارق في تأملاتهِ وتصوراتهِ وما طرأ عليهِ في تلك الليلة وماذا يطرأ على خطيتهِ اذا حلّ نصف الليل ولم يحضر اذا بباب سرّي قد فُتح في الحائط ودخلت منهُ فتاةٌ ورجلٌ يشبه الزعيم الاول في ضخامة بنيتهِ وتركيب جسمهِ . وتمكن راعول مع ضعف النور ان يراقب الفتاة فرأى قامةً كالخيزران وعنقًا كعنق الغزال ويدين يعجز امهر النقاشين عن تكوين مثلهما من الجبس الابيض . اما وجهها فكان يسترهُ برقع من الحرير الاحمر فيهِ ثقبان تظهر منهما عينان ولا عيون المهى . فجلست الفتاة على كرسيٍّ وجلس الزعيمان عن يمينها وشمالها ثم خاطبت راعول بصوت لهُ رنةٌ ارعشت قلبهُ الذي لم يعرف الخوف قبلاً وشعر لاول مرة في حياتهِ انهُ في موقف مرهب عظيم . فقالت الفتاة انزع من فكرك يا حضرة القاضي راعول كل وجل وتأكد اننا لا نريد بك سوءًا البتة ولا نتجاسر على قتلك ما لم ترد انت ذلك

فقال راعول مبتسماً اؤكد لكِ يا حضرة السيدة انني لا اريد الموت الآن فاذًا انا في امان

قالت وعلى الخصوص ان خطيبتك في انتظارك قبل نصف الليل فعليك بانجاز الخدمة التي استقدمناك لاجلها عاجلاً كي لا تتأخر عنها

فنظر راعول نظر المتعجب وقال في نفسهِ يظهر ان القوم مطلعون على كل احوالي فما هي يا ترى الخدمة التي يريدون مني القيام بها . واتمت الفتاة حديثها فقالت تذكر يا حضرة القاضي انك صدّقت من بضعة ايام على تنفيذ حكم الاعدام شنقاً في شخص يدعى بول جارقيه المتهم بقتل ثلاثة اشخاص في ليلة ١٣ نوفمبر . فاعلم اذاً ان هذا الرجل بريء من التهمة المذكورة برآءتك انت منها وان كانت جميع قرائن الاحوال تدل على انهُ هو الفاعل . ولديّ براهين دامغة وحجج قوية تثبت برآءة الرجل وشطط القضاة في الحكم عليهِ ولكنني لا استطيع ذكرها سرًّا ولا جهرًا صيانةً لمصلحة وعرض من يهمهم الامر . غير اني لا اريد ان يُقتَل الرجل ظلماً وقد رهنتهُ شرفي ووعدتهُ انهُ لا يُقتل . ولما كنت انت رئيس قضاة المحكمة العليا ولا مردّ لاحكامك فقد بثثت عليك العيون من يوم صدور الحكم لاستحضارك الينا وانا اقسم لك بالشرف العظيم و بالاله العارف بكل شيء ان الرجل بريء ولا يجب ان يُعدم فصدّق كلامي واذ ذاك يساعدك ضميرك على الغآء الحكم ودع رجال النيابة والشحنة يبحثون عن القاتل الحقيقي

قال راعول هذا طلب المستحيل ايتها السيدة فان لنا قوانين لا يسعنا الا اتباعها ولا يكفي كلامي بدون البرهان لالغآء حكمٍ قد قررتهُ المحاكم ووافقت عليهِ المحكمة العليا . اما اذا كانت الحقيقة كما تقولين فلا اسهل من المعارضة قبل انفاذ الحكم وتقديم البراهين التي تدحض التهمة واذ ذاك فتكونين قد قمتِ بوعدكِ وخلصتِ الرجل و بغير ذلك لا يمكن البتة الغآء الحكم . قالت انا اعلم كل ذلك ولكنني قلت لك ان هذا لا يمكن ايضاً ولا بد من ان تفعل كما توسلت اليك فمن كان نظيرك رجل فرنسا الوحيد في هذه الايام لايصعب عليهِ ان يلغي حكماً بعد اقتناعهِ ببرآءة المتهم ولو كانت البراهين ضدهُ

قال قد قلت لكِ ان هذا مستحيل ولا يمكن ان اقوم بهِ . قالت اما انا فقد

وعدت الرجل المسكين بعد وعدي الاول انهُ اذا لم انجح ونفذ فيهِ الحكم فما يجري عليهِ ساجريهِ انا في محكمتي هذه عليك يا من وافقت على اعدام البريء ولم تستجب لصراخ الحق . ثم تغيرت نغمة صوتها فجآءةً وقالت يا راعول اما ان تحلف لي الآن بشرفك وتعدني كتابةً انك تلغي الحكم وتخلص السجين من عذاب الشنق وتخضع لامري هذا مذ الساعة واما ان تسجن هنا كما هو مسجونٌ هناك الى اليوم المعين فبينما هو يدخل رأسهُ في حبل المشنقة تكون حبال مشنقتي ملتفة على عنقك وتسقط جثتاً كما في دقيقة واحدة . اني انتظر جوابك الآن فافتكر ملياً وجاوبني نهائيّاً

وادرك راعول عظم الخطر وقرأ في صوت الفتاة التصميم التام فعلم ان لا مناص الا بخرق الشريعة الفرنسوية وخرق شرفهِ معها او الموت . ومرّت امامهُ في تلك الدقائق الهائلة تذكارات شتى وانبسطت امامهُ اشغالهُ الكثيرة وتعلقاتهُ الشخصية ثم املاكهُ الواسعة وغناهُ الوافر وانهُ ان مات فليس من يستولي على مقتنياتهِ اذ لا وارث لهُ ولا وكيل . ثم تجلت امام بصرهِ صورة خطيبتهِ وانها بانتظارهِ في تلك الليلة وماذا يؤثر عليها خبر اختفآئهِ في اليوم الثاني وكيف يفارق الدنيا وهو لم يقطف اول زهرة من شجرة الحب التي غرس اصولها الى غير ذلك من التصورات التي يعجز القلم عن وصفها . فاستغرق تأملهُ بضع دقائق ساد فيها السكوت العميق وكانت الالوان الحمرآء في ذلك النور الضعيف تزيد المكان رهبةً . ثم مرّت سحابةٌ مظلمة امام عيني راعول وتمثل في نفسهِ انهُ اذا انقاد لارادة هذه السيدة المجهولة فقد مركزهُ واضاع شرفهُ بخرق قانون بلادهِ وهو الذي عدّلهُ فما خطرت لهُ هـذه الافكار حتى رفع بصرهُ الى الجالسين وصاح بصوتٍ تقطعهُ الانفعالات النفسانية وقال الموت ولا العار . كلا . لن اخضع لامركِ ايتها الحاكمة المطلقة التصرف في مملكتها هذه السودآء . وانني متحققٌ قيامكِ بوعيدكِ فاذا كنتِ كما تدّعين من اشراف الفرنسيس ويسهل عليكِ ان تري اكبر قضاة بلادكِ ينقض القانون العام فلا ادري اين يكون شرفكِ اذ ذاك . على انهُ اذا تمكنتِ

من اخماد صوت ضميركِ والتغاضي عن شرفكِ الى ان تفرغي من تقديمي ضحية على مذبح غاياتكِ فاني استقبل الموت باسماً لانهُ يخلصني من الوجود بين اقوامٍ هم في الظاهر من اسمى اشراف العالم ولكنهم في الباطن لا يُفرَقون عن قطاع الطريق

ولما سمعت الفتاة ذلك نهضت ووقف الزعيمان لها اجلالاً فقالت بصوتٍ حادٍّ جهوري . انت الجاني على نفسك يا هذا فقد حكمت عليك ان نفعل بك كما سيفعل حكمك بذلك المسكين وسترى ان احكام محكمتي هـذه ليست باقل من قوانينكم متانةً ولا اصعب منها تنفيذًا . ثم نظرت الى رفيقيها وقالت قد خرج الحكم من فمي فانظرا في تنفيذهِ

وكانت العظمة ترافق كلماتها والهيبة والجلال يرافقان مشيها حتى بلغت الحائط فانفتح لها من ذاتهِ وتوارت عن العيان . ثم عمد الزعيمان الى راعول فارجعا العصابة على عينيهِ واقتاداهُ بيدهِ فانزلاهُ في سلالم وسارا بهِ في دهاليز عديدة الى غرفة اخرى اوصلاهُ الى صدرها وصعدا بهِ ست درجات الى دكة خشبية فاجلساهُ على كرسيٍّ واوثقا يديهِ الى جانبيهِ ورجليهِ الى مقدم الكرسي ورفعا العصابة ثانيةً فرأى راعول نفسهُ في غرفة اكبر من الاولى وتختلف عنها بان الوانها سوداء ورأى في سقف الغرفة فوق رأسهِ حبلاً منصوبًا بهيئة المشنقة فارتجفت اعضاؤهُ . وكان في الجانب الآخر من الغرفة نورٌ ضعيف ينبعث من كاسٍ فيها فتيلةٌ قد غمست في الزيت وكان الهواء يلاعب نورها فتظهر على الحائط اشباحاً غريبة الشكل يؤلفها النور الضعيف . و بعد دقيقة دخلت الفتاة ففحصت وثاق راعول وكرسيهُ فحصاً مدققاً ثم تناولت الحبل المعلق فوق رأسهِ وادخلتهُ في عنقهِ وقالت لهُ انك الآن مثل ذلك المسكين وستبقى الى ان ينقضي اجلكما معاً وسيأتيك الطعام كما يقدمون لهُ وفي نفس اوقاتهِ وسنتركك الآن وحدك مثلهُ لتناجي افكارك . واعلم ان في محكمتنا رحمة اكثر مما عندكم فاذا شئت ان تغير عزمك وتفعل ما طلبت منك قبل حلول الاجل فما عليك الا ان تنادي فيسمعك الحاجب الذي خارج الباب ويبلغني رسالتك والا فستبقى هكذا الى يوم انفاذ الحكم فترافق روحك روح ذلك السجين

فانكما ستموتان معًا ظلمًا

ولما انهت كلامها خرجت وتبعها الزعيمان وأُوصد الباب فبقي راعول في تلك الحالة التي نترك وصفها لتصور القارئ اللبيب . وساد السكوت فلم يسمع سوى ضربات قلب راعول وزفرات انفاسهِ المتقطعة وعاودتهُ افكارهُ المختلفة وترآءت لهُ صور عديدة لكنها لم تثبط عزمهُ ولا حوّلت فكرهُ عن الاستشهاد في سبيل حفظ قانون بلادهِ وحفظ شرفهِ . ولما صمم على الموت وتاكد تقريرهُ جعل يفتكر في ما عسى ان تقول خطيبتهُ عنهُ وما سيكون اذا جآء اليوم الثاني ولم يعرف لهُ خبر وزادت عليهِ المؤثرات من كل جهة وكأن دماغهُ العظيم لم يعد يقوى على الاحتمال بعد شغل النهار وحوادث الليل والافكار التي تتوارد منها الوف في الدقيقة في مثل تلك الحالة وزاد عليهِ صوت ساعة كبيرة في ذلك السكون التام فجعل يعدّ ضرباتها الى ان بلغت العاشرة فخالها رنة الحزن على شبابهِ وسُدِل على عينيهِ حجاب السكون فخدرت حواسهُ ونام غير النوم الطبيعي

. . . .

وافاق راعول من غيبوبتهِ هذه على صوت فتح باب غرفتهِ واذا بالفتاة داخلةٌ يحفّ بها الزعيمان حتى اذا بلغت الدكة وقفت امام راعول وقالت بصوت يسحر الالباب يظهر يا حضرة القاضي ان نجم التوفيق ساهرٌ على حياتك . انني كنت قد صممت على ما مرّ بيننا في هذه الليلة ولكنهُ بلغني في هذه الساعة ان بول جارقيه قد يئس من الفرج وشك في صدق كلامي فانتحر . وعليهِ فقد صرتُ بريئةً من قسمي الذي اقسمتهُ لهُ وقد حمل باختيارهِ عنك وعنا متاعب اخرى وارخى بموتهِ الحجاب على ما حدث في ليلة ١٣ نوفمبر مما صار يجب نسيانهُ قطعيًا . وعليهِ ولكي تتحقق انهُ لم يكن لي غاية اخرى فيما فعلت فساطلق سراحك حالاً بعد ان تعدني وتقسم لي بشرفك انك تنسى جميع ما مرّ امامك في هذه الليلة وان لا تذكرهُ امام مخلوق ولا تحاول ان تبحث لتعرف شيئًا عن الاشخاص الذين وُجدت بينهم و بالاجمال كأن هذه الساعات لم تمرّ عليك في حياتك قط فهل تتعهد وتعد بذلك . قال نعم .

فاخرجت الفتاة من جيبها كتاباً مجلداً بالذهب وعلى جانبيهِ الشعار الفرنسوي مرصعاً بالجواهر الثمينة فقالت هوذا الكتاب المقدس اساس دينك وهوذا شعار المملكة التي تدافع عنها وتقسم بشرفها فضع يدك عليهِ واتبعني في تكرار القسم الذي اتلوهُ عليك واختمهُ بتقبيل الكتاب والشعار . ثم حلت لهُ رباط يدهِ وانشأت تلقنهُ كلمات القسم وهو يردِدها بوقار واحترام حتى اذا فرغ قبل الكتاب وهو لا يصدق بالنجاة . فتقدم الاثنان وحلا وثاقهُ وانزلاهُ عن كرسيهِ فقالت لهُ الفتاة ان خطيبتك تنتظرك قبل نصف الليل ولسوء الحظ قد اخرناك ولم يبقَ لديك سوى ربع ساعة الى الساعة الثانية عشرة ولكني قد امرت عربتي ان تقلك بمنتهى السرعة الى حيث يمكنك الوصول الى بيت خطيبتك . وقبل ان يتمكن راعول من النطق بكلمة معها خرجت تاركة الزعيمين للاعتناء بهِ . فامرهُ احدهما ان يعيد العصابة على عينيهِ ففعل واقتاداهُ الى العربة فاركباهُ وركبا بجانبهِ وسارت العربة بهم مسرعة حتى بلغت ساحةً عمومية فاستوقفاها وانزلاهُ منها وامرا السائق بالرجوع ثم اكتريا عربةً اخرى اجلسا راعول فيها وقالا لهُ اذا سارت بك العربة فارفع العصابة واذكر القسم . ثم فارقاهُ

. . . .

وكانت خطيبة راعول واهلها والمدعوون بانتظارهِ وقد استاءوا من تأخرهِ ولا سيما وقد ابتدأت الساعة تقرع ضرباتها فما انتهت الثانية عشرة حتى فُتح الباب ودخل راعول ولكنهُ كان اصفر الوجه وعلائم التهيج الشديد مرتسمةٌ عليهِ . غير انهُ تمكن للحال من تقديم بعض الاعذار عن تأخرهِ وقضى باقي ليلتهِ على اتم السرور كأن لم يكن شيء البتة

وحافظ راعول على قسمهِ فلم يعلم احد بما جرى الى ما بعد مماتهِ فوجدت زوجتهُ تفصيل الحادثة في مذكراتهِ الخصوصية وكانت الى ذلك الحين لا تزال تجهل السبب الذي اخرهُ عن الحضور في ليلة عيد الميلاد